مستوييه : الإخباري ، والإبداعي .

ولو نحّينا عبد القاهر جانبًا ، فسوف نجد أن الدراسة القديمة فيما يتصل بالصياغة ، قد انصبت في مُجْمَلها على الناحية المحسوسة في الإبداع الأدبي ، أي الناحية اللفظية ، فلم تلق العملية الفكرية اهتمامًا ملحوظًا قبل الجرجاني ، وهذا على الرغم من أن أساس البحث في بناء الأسلوب ، وعلاقة المفرد بالمركب ، كان من منطلق قضية كلامية حول القرآن ، أ هو قديم أم مخلوق ؟ ثم حول (الكلام) أ هو صفة قديمة للذات الإلهية ، أم اسم من أسمائها ؟ وقد ترتب على ذلك محاولة توفيقية بين الأمرين ، تقول بوجود كلام قديم هو الكلام النفسي ، أي الجانب الفكري في التعبير ، وكلام ملفوظ حادث ، أي الصياغة المحسوسة . واستطاع الجرجاني أن ينقُلَ القضية من مستواها الكلامي الفلسفي ، إلى مستوى الإبداع الأدبي ، وجعل الجانب الفكري منوطًا بالعلاقات القائمة بين الكلمات وجعل من الصياغة اللفظية رموزًا وإشارات لهذا الجانب الفكري .

وقد جعلت طبيعة البحث في النقد القديم من (المفرد) نقطة البدء في تتبع الخواص التعبيرية ، بل إن التدقيق في هذا البحث امتد إلى جزئيات هذا المفرد ، أي إلى الحروف وما يعتورها من حالات في تركُّبها مع غيرها مما يماثلها أو يخالفها ، وما يكتنفها — أحيانًا — من صعوبات حالة إخراجها ، مما أتاح لونًا من الدراسة المكثَّفة للمستويات الصوتية ، في نوعية الحروف ، أو في كميتها .